



مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: البعد الديني في شعر شعراء الدعوة الإسلامية

اسم الكاتب: د. هبة عقيل

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/2793>

تاريخ الاسترداد: 2025/05/09 23:08 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسية مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكرية ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.



البعد الديني في شعر شعراء الدعوة الإسلامية

د. هبة عقيل*

الملخص

يحاول هذا البحث أن يرصد البعد الديني في شعر فئة محددة من الشعراء، هم شعراء الدعوة الإسلامية (حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة) الذين أقبلوا على الإسلام وتمثلوا قيمه قولاً وفعلاً، وفهموا الشعر فهماً جديداً أسسه لهم قول النبي الكريم ﷺ: "إنما الشعر كلام مؤلف، فما وافق منه الحق فهو حسن، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه"¹، فاتخذوا شعرهم وسيلة يدعون بها إلى الإسلام، وسلاحاً ينافحون به عنه، ويدفعون به عن النبي الكريم ﷺ أذى شعراء قريش وغيرهم من الشعراء المشركين. وآثرت أن أتتبع البعد الديني في شعر هؤلاء الشعراء في سياقات مخصصة، تتداخل أحياناً، وقد تتفصل وتتمايز، لكنها -على أي حال- تتكامل في سبيل تحقيق الغاية الفنية المرجوة، وهذه السياقات هي: سياق المدح والفخر، وسياق الهجاء، وسياق الرثاء. وهدف البحث أن يتبين -أولاً- إلى أي مدى تمثل هؤلاء الشعراء قيم الإسلام وتعاليمه ومبادئه، وصدروا في شعرهم عن تلك القيم والمبادئ، وأن يعلل -ثانياً- غلبة وجود ذلك الأثر الديني في سياقات محددة، وغيابه، أو تواريه، في سياقات أخرى.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

¹ -العمدة: ابن رشيقي، 1/ 27.

The Religious Dimension in the Poetry of the Islamic Requisition Poets

Dr. Hiba Akeel**

Summary

This research tries to focus on the religious dimension in the poetry of a specific community of poets; those are the poets of the Islamic requisition (Hassan bin Thabet, Ka'b bin Malek, Abdullah bin Rawaha). They accepted Islam and represented it in deed and by words. They understand the poetry newly depending on the speech of Prophet Mohamed (pbuh) who said: "poetry is a narrated speech, what fits truth is good, what doesn't fit is bad.". They considered poetry as a tool to promote for Islam, and as a weapon to protect it, and protect Prophet Mohamed (pbuh) from Quraish and other polytheist poets.

The research follows the religious dimension in this poetry through specific contexts. These contexts merge sometimes, and they separate and differ other times. But they finally complement each other to achieve the artistic aim. These contexts are: the context of compliment and glory, the context of satire, and the context of elegy.

the research aims first to declare how far the poets represented the values, teachings and essentials of Islam. Secondly it aims to justify the presence or the absence or disappearance of the religious effect in different contexts.

** Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language.

تمهيد:

كان ظهور الإسلام حدثاً كبيراً غير وجه الجزيرة العربية، قبل أن ينتقل منها إلى أرجاء العالم، وقد أحدث الإسلام هزة عنيفة في نفوس العرب ووجدانهم، وطبيعة حياتهم، وكان ثورة طالت جوانب الحياة كلّها، الدينية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ولا ينبغي أن يفهم من كلمة (ثورة) أن الإسلام فعل في الحياة العربية ما تفعله الثورات الهائلة أو الانقلابات الهدامة، من محو لآثار كل ما سبقها، بل لا بد من التأكيد أن الإسلام حرص على المحافظة على المكارم التي كان عرب الجاهلية قد ألفوها، وأعاد صياغة كثير من القيم بما يتناسب مع جوهره ورواه.

ومن المؤكد أن الإسلام ظهر في الوقت المناسب ليكون تلبية مركبة لحاجات المجتمع العربي الجاهلي، ومن المعروف أن مجتمع الجزيرة العربية كان قد بدأ يتهيأ في أواخر العصر الجاهلي، فقبل ظهور الإسلام، لتقبل ما جاء به الإسلام من قيم دينية سامية نبيلة¹، ولكن من الثابت أيضاً أن السبيل أمام انتشار الإسلام لم تكن ممهدة تخلو من المعوقات، وأن الإسلام لم يتمكن من تطويع النفوس وغرس قيمه فيها حال ظهوره، فإن نلّكم النفوس لم تكن متساوية، أو متقاربة، في لينها وطواعيتها لقبول الدين الجديد، فثمة من آمن قلبه وصدق قوله وفعله اعتقاده، وثمرته من أسلم ولم يفرغ قلبه من التعلق بحياته الغابرة، فظلّ مشتمت اللب، يتنازع انشداداً إلى قيم نشأ عليها لا يستطيع منها انفكاكاً، وانجذاباً إلى حياة جديدة آخذة بالاستقرار والتمكين لقيمها ومبادئها.

ولعل شعراء المدينة² من الأنصار كانوا أسرع الشعراء إلى تمثيل قيم الإسلام، وإلى اتخاذ الشعر سلاحاً من أسلحة الدعوة، لأنهم من الأوس والخزرج، الذين أقبلوا على اعتناق الدين الجديد ومناصرة نبيه الكريم، لأسباب متضافرة، منها رغبتهم في منافسة قريش ذات السيادة والمكانة الدينية البارزة، ورغبتهم في إنهاء ما كان بين حبيهم من خصومات متصلة، فضلاً عن ضيقهم باستعلاء جيرانهم من اليهود عليهم، ويبدو أن "مجاورتهم يهود في يثرب

¹ انظر: شعرنا القديم والنقد الجديد: وهب رومية، 99-100؛ وانظر للاستزادة: بنية القصيدة العربية: وهب رومية،

ص: 285-286؛ قيم جديدة للأدب العربي: عائشة عبد الرحمن، ص: 8.

² أعني شعراء المدينة الذين أسلموا ودافعوا عن الإسلام حتى عرفوا بشعراء الدعوة، وهم: حسان بن ثابت، ترجمته في طبقات فحول الشعراء: ص: 1/215؛ والأغاني: 4/134؛ والإصابة: ص: 2/55؛ وكعب بن مالك: ترجمته في طبقات فحول الشعراء، ص: 1/220؛ والإصابة: ص: 5/457؛ وعبد الله بن رواحة: ترجمته في طبقات فحول الشعراء، ص: 1/223؛ والإصابة: ص: 4/72.

وأتصالهم بهم ووقوفهم على ديانتهم، كل ذلك قد هيأ أذهانهم لتقبل فكرة دين سماوي توحيدي يسمو على معتقدات الوثنية، ويستعلون به على جيرانهم اليهود.¹ وشجعهم موقف النبي الكريم ﷺ من الشعر والشعراء، ودعوته إياهم إلى مناصرة الإسلام بألسنتهم كما قد ناصروه بسيوفهم² شعراء الدعوة على المضى في مناصرة الإسلام بشعرهم، فانطلقوا يعبرون في شعرهم عن موقف ملتزم تجاه الإسلام ونبية الكريم وأتباعه، واغتنى شعرهم ببعد ديني جديد اتضح في التزامهم قيمًا إسلامية محددة في مدح النبي الكريم ﷺ وجموع المسلمين، وفي الفخر بهم، كما بدا في إلحاحهم على تصوير غياب قيم دينية خاصة في أثناء هجاء أعدائهم وخصومهم، ثم اتضح في جانب مهم هو جانب رثاء شهداء المسلمين، ورثاء النبي الكريم وبعض خلفائه. وسأبين هذا البعد الديني في شعر هؤلاء من خلال السياقات التي ذكرت.

1. البعد الديني في شعر شعراء الدعوة في سياق المدح والفخر:

كان للإسلام أثر كبير في تغيير نظرة الشعراء المسلمين - وأخص منهم شعراء المدينة - إلى طبيعة الشعر ووظيفته، " فلم يعد الشعر حرفة لكسب الرزق، بل صار سلاحًا لنشر الدعوة والذود عنها والتعني بانتصاراتها."³ فانصرف بعض هؤلاء الشعراء عن المدح المتكسب وابتعدوا ابتعادًا كبيرًا عن الكذب والمبالغة في المدح، استدرارًا لعطايا الممدوح وهزًا له على السماح، وعلى الرغم من أن هذا الحكم لا يمكن تعميمه، فهناك أمثلة تردده، إلا أنه - من بعض جوانبه - صحيح لا يمكن تجاهله، وردّ بعض الباحثين أسباب انصراف الشعراء عن الإسراف في المدح الكاذب إلى رغبتهم في تحري الصدق الذي حضّ عليه الإسلام، وبانصرافهم عن طرق أبواب الأجواد لطلب العطاء، لأن الإسلام أغناهم عن ذلك بفرض الأرزاق من بيت المال لأكثر الشعراء.⁴

ومن هنا راح شعراء المدينة يحتفلون بأمر الدين الجديد، ويمجدونه، فقصروا مدائحهم - أو كادوا يفعلون - على النبي محمد ﷺ، فرسموا له صورة بهيئة فارقوا فيها - إلى حد بعيد - النموذج الذي ألفه الشعراء قبلهم في مدح ممدوحهم، وهو نموذج قد استقر في العصر الجاهلي، وبدت فيه صورة الممدوح " ضمن صفات مثالية شكلت «النموذج»

¹ حسان بن ثابت، حياته وشعره: إحصان النص، ص: 92؛ وانظر: المرجع نفسه: ص: 89-93، ففيه كلام وافٍ مفصل عن هذه الأسباب.

² الخبر في الأغاني: ص: 4/137.

³ بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 287.

⁴ شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ص: 357.

الخاص أو الخارق الذي عكف الشعراء على صنعه من خلال رصيد ضخم من معاني المروءة؛ كالكرم والشجاعة خاصة، ثم عراقة النسب والحلم والنجدة والأففة، إلى أقصى ما يمكن أن يضاف إلى الصورة المثال من معان وصفات ضمن دائرة الفضيلة والأخلاق السامية. وخلع الشعراء هذه الصفات على ممدوحهم جميعاً من غير حساب، فكأنهم نحتوا صور هؤلاء الرجال نحتاً، مما أدى إلى جمود المضمون ونمطيته.¹

وتبدو صورة النبي الكريم مشرقة بالمعاني الإسلامية الجديدة في قول حسان بن ثابت:

نبيّ أتانا بعدَ يأسٍ وفترةٍ من الرُّسلِ والأوثانُ في الأرضِ تُعبَدُ
فأمسى سراجاً مُستتبِراً وهادياً يلوحُ كما لاحَ الصقيْلُ المهْتَدُ
وأنذرنا ناراً وبشّرَ جنّةً وعلمنا الإسلامَ فاللهُ نحمدُ²

إنه مدح يدور في جو إسلامي خالص، وتتميز فيه صورة الممدوح/النبي بارتكازها على صفات النبوة والهداية وما يتصل بها من تبشير بالجنة وتعليم لمبادئ الإسلام وقيمه. إن صورة الممدوح في الأبيات صورة جديدة، ومن الواضح أن صورة (السيف/المهتد) لم تغب عن هذا المدح، وهي صورة تقليدية معروفة³، ولكن الشاعر أتى بها في مدح النبي الكريم ضمن إطار إسلامي جديد، فأزال عنها ما كان يكتنفها من رهبة منبعها الخوف من بطش الممدوح، ونسجها نسجاً إسلامياً جميلاً فجعلها تشع بنور الهداية، والممدوح ليس سيدياً من سادة الجاهلية يعتز بنسبه ومآثره وكرمه وقوته، ولكنه نبي الله تعالى كما قال في موضع آخر:

نبيّ يرى ما لا يرى الناسُ حولهُ ويتلو كتابَ الله في كلِّ مَشْهَدٍ⁴

وكم يختلف هذا الممدوح عن ذلك الذي كان يمدحه شعراء الجاهلية!

¹ صورة الخليفة ومفهوم (النموذج)؛ شعر شعراء الطبقة الإسلامية الأولى من طبقات ابن سلام نموذجاً: فاطمة تجور، مجلة جامعة دمشق، المجلد (24)، العددان (3-4)، 2008م، ص: 157.

² ديوان حسان: ص: 1/306، ق: 152.

³ انظر -مثلاً- قول النابغة: /فأنت ربيع ينعش الناس سنيتهُ وسيفٌ أعيرتهُ المنيةُ قاطع/ (ديوان النابغة الذبياني: 53، ق: 3).

⁴ ديوان حسان: 1/464، ق: 290.

ولحسان أبيات أخرى مدح بها النبي الكريم عقدها حول هذه المعاني الإسلامية الخالصة، ولم يغفل -في القصيدة نفسها- عن الإشارة إلى بعض المعاني المألوفة في المدح، لكنه أتى بها في سياق إسلامي جديد، قال:

مُسْتَشْعِرِي حَلَقِ الْمَازِي يَفْدُمُهُمْ جَلْدُ النَّحِيْزَةِ مَاضٍ غَيْرُ رَعْدِيدِ
أَعْنِي الرَّسُولَ فَإِنَّ اللَّهَ فَضَّلَهُ عَلَى الْبَرِيَّةِ بِالتَّقْوَى وَبِالْجُودِ

...

مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ رَكَّابٌ لَمَّا قَطَعُوا إِذَا الْكُمَاءُ تَحَامَوْا فِي الصَّنَادِيدِ
وَإِمْ وَمَاضٍ شَهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ بَدْرٌ أَنْارَ عَلَى كَلِّ الْأَمَاجِيدِ
مَبَارِكٌ كَضِيَاءِ الْبَدْرِ صَوْرَتُهُ مَا قَالَ كَانَ قَضَاءً غَيْرَ مَرْدُودِ
مُسْتَعْصِمِينَ بِحَبْلِ غَيْرِ مُنْجَذِمِ مُسْتَحْكِمٍ مِنْ حِبَالِ اللَّهِ مَمْدُودِ¹

وليس غريباً أن نجد المعاني المألوفة تمتزج بالمعاني الإسلامية الجديدة في هذه القصيدة التي تمثل المرحلة الانتقالية، فيبدو فيها بجلاء امتزاج التيارين التقليدي والمستحدث من جهة المضمون، كما يبدو فيها التخلخل والاضطراب الذي أصاب بناء بعض القصائد في هذه المرحلة، فقد تخفف الشاعر من المقدمات التقليدية، ليشرع في المدح مباشرة. ونجد الشاعر يلجأ على إبراز صورة الممدوح محمد ﷺ متميزة بسمات النبوة التي اختصه بها الله تعالى، فهو (الرسول) المصطفى، الذي فضّل على العالمين (بالتقوى)، وهو (المبارك) الذي لا ينطق عن الهوى، وهو (الشهاب) الذي ينشر نوره المستمد من نبوته على من حوله، ثم إنه (البدر) الذي يفوق الناس بهاءً وألقاً، وهو في الوقت ذاته القائد الذي تلتف حوله جموع المسلمين، فتأتمر بأمره وتهتدي به وهي تسعى إلى تحقيق النصر على أعداء الإسلام. ولعل هذه الصورة الجماعية قد وضعت صورة الممدوح في سياق إسلامي جديد، فالجماعة تربطها رابطة الدين أو العقيدة، لا رابطة الدم والعصبية، وقائدها يتقدمها دفاعاً عن رسالة إلهية، لا رغبة في ثأر أو طمعا في غنيمة. وفي هذا الجانب الجماعي يبدو الفخر ممتزجاً بالمدح امتزاجاً قوياً، إلى حد يصعب معه

¹ ديوان حسان: ص: 1/128، ق 34.

استشعر الثوب: لبسه، المازي: خالص الحديد وجيده، الجلد: الصبور القوي، النحيزة: الطبيعة، رعيد: جبان، الهول: المخافة من الأمر، الصناديد: ج الصناديد: السيد الشجاع، الكماء: ج الكمي وهو الفارس المدجج بسلاحه، منجذم: منقطع، مستحكم: قوي محكم.

تميّز أحدهما من الآخر في أكثر الأحيان، والمدح والفخر ينبعان من مصدر ديني إسلامي، ويصَبَّان -معاً- في سبيل تمجيد هذا الدين ونبهه وأتباعه.¹ ومن سمات مرحلة الانتقال الواضحة في هذه القصيدة من جهة بنائها أيضاً: تخفف الشاعر من الموضوعات البدوية التي ألف الشعراء ذكرها في مدائحهم، وأدى هذا الأمر إلى قصر القصيدة من جهة، وإلى الابتعاد عن المعجم اللفظي البدوي ابتعاداً واضحاً من جهة أخرى، والميل -عوضاً عن ذلك- إلى اعتماد معجم إسلامي جديد وجدناه في وصف النبي الكريم ﷺ، وفي الحديث عن جموع المسلمين الذين مدحهم وافتخر بهم. ولا تختلف صورة النبي ﷺ في شعر كعب بن مالك كثيراً عما بدت عليه في شعر حسان، ويتميز شعر كعب - بعد ذلك - بوضوح صوت الجماعة، وتَمَيُّز الضمير الدال عليها، وإحاطة صورة هذه الجماعة بإطار ديني إيماني جديد، تتجه بفضلها نحو أهدافها وتحقق غاياتها، قال كعب:

سائل قريشاً غداة السفح من أُحُدٍ ماذا لقينا وما لاقوا من الهَرَبِ
كُنَّا الأسودَ وكانوا الثَّمَرَ إذ رَحَفوا ما إن نراقبُ من إلٍّ ولا نَسَبِ

...

فينا الرسولُ شهابٌ ثم يتبعُهُ نورٌ مضيءٌ له فضلٌ على الشُّهُبِ
الحقُّ منطِقُهُ والعدلُ سيرتُهُ فمن يُجِبُّهُ إليه يَنجُ من تَسَبِ
نَجْدُ المقَدَّمِ ماضي الهمِّ مُعْتَزِمٌ حينَ القلوبُ على رَجْفٍ من الرُّعْبِ
يَمضي ويذمُّرنا من غيرِ معصيةٍ كأنَّهُ البدرُ لم يُطْبَعِ على الكَذِبِ
بدا لنا فاتبعناه نُصدِّقُهُ وكذَّبوه فكنَّا أسعدَ العربِ

...

ليسا سواءً وشتى بين أمرهما حزبُ الإلهِ وأهلُ الشركِ والنُّصَبِ²

...

¹ بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 296.

² ديوان كعب بن مالك الأنصاري: ص: 149-150.

الإل: النسب والقرابة، التيب: الهلاك، نجد المقدم: شجاع، الهم: العزم، رجف: اضطراب، يذمر: يحضن ويدفع، لم يطبع: لم يخلق، النصب: كل ما عبد من دون الله تعالى.

إن كعباً لم يخرج في مدح النبي الكريم عن دائرة المعاني الإسلامية التي وجدناها عند حسان، ويبدو أن صورة النبي قد اقترنت عند شعراء الدعوة بصورة (الشهاب) و(البر)، في محاولة لإضفاء هالة تميّز الممدوح وتعلي شأنه على البشر، واكتملت عناصر الصورة الإسلامية الجديدة بالحديث عن الحق والعدل والصدق والابتعاد عن المعصية، وما كان للشاعر أن يغفل عن الإشارة إلى صفات القائد المقدم الذي لا تخونه عزمته إذا ما أراد تحقيق أمر ما، فيتقدم جماعته في أصعب الأوقات، ويكون لها القدوة والمثل الأعلى، وما من شك في أن الغاية التي ينطلق في سبيلها، وتنطلق جماعته معه، غاية دينية سامية، لا معصية فيها ولا فجور، تتمثل في إحقاق الحق وتوطيد أركان الإسلام، ولو كان ذلك على حساب مواجهة الأهل والأقارب، وهذا ما جعل صورة هذا القائد الممدوح صورة متفردة، وهو أيضاً ما جعل الجماعة التي تمضي وراء هذا القائد ترفع راية الإسلام حتى استحق أفرادها أن يوصفوا بأنهم (حزب الإله)، وفي هذا الوصف إحالة واضحة على النص القرآني الكريم: ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾¹.

ولا يغيب البعد الديني الجديد عن شعر عبد الله بن رواحة، وما هو ذا يمدح النبي الكريم قائلاً:

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
بييت يجافي جنبه عن فراشه إذا استنقلت بالمشركين المضاجع²

هذا مدح ممتزج بالفخر الذي دلّ عليه ضمير الجماعة، وأراد الشاعر جماعة الأتصار، وعقد الأبيات حول المعاني الإسلامية (تلاوة القرآن الكريم، الهداية) وانتكأ على المعجم اللفظي الإسلامي الجديد، ولم يغب أثر القرآن الكريم عن شعره، فقد ضمن قول الله تعالى: ﴿... نتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً...﴾³

وقد يقع المرء عند شعراء الدعوة على مدح لغير النبي الكريم، فقد مدح حسان الزبير بن العوام⁴، فاعتمد على طائفة من المعاني الدينية الجديدة، التي صاغها بمفردات وتراكيب مستمدة من المعجم اللفظي المتأثر بالإسلام، ولكنه لم يخرج - مع ذلك - عن

¹ - المجادلة: 58: 22.

² - ديوان عبد الله بن رواحة: ص: 96.

³ - السجدة: 32: 16.

⁴ - ديوان حسان: ص: 433/1.

المعاني المألوفة التي اعتاد الشعراء ذكرها في معرض المدح، فلم تغب قيمتنا النسب الرفيع والشجاعة عن هذا المدح، إلا أن الشاعر مضى بهما فوجهما توجيهاً دينياً خاصاً، فبين أن نسب الممدوح الشريف يزداد سموً ورفعة لأنه يمتد إلى النبي ﷺ بسبب، وشجاعته تفوق كل حدٍّ لأن الممدوح يسخرها لنصرة دين الله.

تلك نماذج من المدح في شعر شعراء الدعوة، وإن النظر في هذه النماذج يبين أن البعد الديني كان له الأثر الأكبر في توجيه هذا المدح ورسم معالمه، على المستويات المتعددة؛ الفكري منها والفني، فعلى المستوى الفكري (المضموني) قام هذا المدح على معان جديدة -في أكثر الأحيان- ما كان للشعراء أن يأتوا بها لولا الإسلام، وما كان لكل الشعراء أن يحسنوا توظيفها على نحو ما فعل شعراء المدينة، وإنما أجاد هؤلاء في هذا الجانب لأنهم من (المؤمنين) الذين خالط الإيمان قلوبهم، وبدا تأثيره في أقوالهم وأفعالهم. وبدا البعد الديني من جهة أخرى في توجيه بعض معاني المدح التقليدية الموروثة (كالمدح بالنسب والشجاعة) توجيهاً دينياً خاصاً.

ولا بد من الإشارة إلى أن شعراء الدعوة لم يطيلوا الوقوف على القيم الدينية، ولم يتأملوها ملياً، على الرغم مما توحى به أشعارهم من إلحاح على هذه القيم وتغليب لها على غيرها، وكانوا في مدحهم يميلون إلى تمجيد الأشخاص أكثر من ميلهم إلى الاعتناء بإبراز القيم التي تحلّى بها هؤلاء الأشخاص¹، ولاحظ بلاشير ذلك فقال مقررًا: "إن الفكر الديني عند الشعراء من جيل حسان بن ثابت والحطيئة لم يتجه نحو التأمل، بل نحو تمجيد هؤلاء الذين أحسنوا الاختيار بين الإسلام والوثنية، وبين عظمة المؤمن الموعود بالسعادة الأبدية وذلّ الكافر الصائر إلى جهنم."²

وتجلى البعد الديني على المستوى الفكري في إبراز الغايات والأهداف من هذا المدح، فالشاعر لا يمدح رغبة في عطاء الممدوح، ولا شكرًا ليد منه سلفت، ولا رهبة من بطشه وجبروته، وإنما تحكم مدحه غاية دينية خالصة، تتجلى في تمجيد الدين الجديد وتقديم صورة متألفة للنبي الكريم وللمسلمين، ولذلك امتزج هذا المدح بالفخر، وطغى ضمير الجماعة، جماعة المسلمين الذين تجمعهم رابطة الدين والعقيدة، لا الجماعة القبلية التي تربطها روابط الدم والنسب.

وتميز شعراء الدعوة -من الجهة الفنية- بأنهم استطاعوا أن يعبروا عن القيم الجديدة بألفاظ وتراكيب وأساليب استمدوها من معجم إسلامي جديد، كان للقرآن الكريم أكبر الأثر

¹ بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 303.

² تاريخ الأدب العربي: بلاشير: ص: 273 / 2.

في تكوينه ونمائه، وأثر هذا المصدر تأثيرًا مباشرًا في شعر هؤلاء، وتجلّى تأثيره في إقبالهم عليه في شعرهم اقتباسًا وتضمينًا، كما مرّ آنفًا.

2. البعد الديني في شعر شعراء الدعوة في سياق الهجاء:

كثر الهجاء في شعر شعراء الدعوة كثرة مفرطة، ولا غرابة في ذلك، إذا ما تذكرنا أن هؤلاء قد اتخذوا الشعر سلاحًا قوليًا واجهوا به ما كان يصدر عن شعراء قريش من هجاء للنبي الكريم ﷺ وللمسلمين. فالشعر قد أصبح - إذن - " إيديولوجية: تدافع وتبشّر (المدح)، أو تنقد وتهاجم (الهجاء)".¹ وقد لاحظ أبو الفرج الأصفهاني أن شعراء الدعوة لم يمشوا على نهج واحد في هجائهم، بل كان لكل منهم أسلوبه الخاص الذي يميّزه، قال: " كان يهجو [قريشًا] ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر، فكان في ذلك الزمان أشد شيء عليهم قول حسان وكعب، وأهون شيء عليهم قول ابن رواحة، فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة".²

إن هذه الملاحظة حول تباين ظهور البعد الديني في هجاء شعراء الدعوة ملاحظة دقيقة، وتقتضي الوقوف عندها، فهي تبين أن شعراء الدعوة قد وظّفوا أساليب متعددة في هجاء المشركين، فقد أثر كل من حسان وكعب اعتماد أساليب الجاهلية، والإلحاح على الهجاء والتعبير بالقيم التي يأنف العربي من أن يعير أو يوصم بها، وكان لهجائهما هذا أثر كبير في نفوس المشركين، وكان له أيضًا أثر واضح في نفوس من أسلم منهم، وثمة أخبار تؤكد أنفة هؤلاء من رواية تلك الأشعار التي كان فيها هجاؤهم قبل إسلامهم. وذكر بعض الباحثين " أن هجاء حسان وكعب ظلّ له الوقع البليغ في نفوس القوم حتى بعد إسلامهم، فإن الإسلام لم يستطع أن يستأصل من النفوس التعلق بتلك القيم التي كانت موضع التقدير في المجتمع الجاهلي إلا بعد انقضاء وقت طويل، فضلًا عن أن الإسلام لم يبلغ جميع هذه القيم وإنما أبقى عليها، ولكنه أضعف عليها ثوبًا إسلاميًا، وقد رأينا بعض شعراء قريش يقدون على المدينة بعد إسلامهم، وينشدون حسان ما قالوه في هجائه أيام الجاهلية، ثم ينصرفون عنه مسرعين لئلا يسمعو ما كان قاله في هجائهم، ولو كان وقع هذا الهجاء هيئًا في نفوسهم لما حفلوا بسماعه".³

¹ - الثابت والمتحول: أدونيس، ص: 190 / 1.

² - الأغاني: ص: 138 / 4.

³ - حسان بن ثابت، حياته وشعره: إحسان النص، ص: 196.

ومن ينظر في هجاء حسان الشخصي، أو في رده على شعراء قريش في معركة النقاىض التي دارت بين المسلمين والمشركين، يجد أن هذا الهجاء لا يخرج عن دائرة التعبير بالجبن والفرار من أرض المعركة، والوصف باللؤم والدناءة، والطعن بالأنساب، والأمثلة في شعره كثيرة¹، ولكن ما يلفت الانتباه في شعر حسان خاصة أنه لم يغفل البعد الديني في هجائه، بل وظفه ببراعة في اتجاه محدد تمثل في هجاء من كانت له معرفة بالإسلام، أعني المنافقين وأهل الكتاب، وكان د. إحسان النصّ قد نبه على هذا الأسلوب من أساليب حسان في هجائه في أثناء حديثه عن (صنعة حسان الهجائية)². قال حسان في هجاء الضحّاك بن خليفة الأشهلي³:

ألا أبلغ الضحّاك أن عروقه أعيت على الإسلام أن تتمّجدا
أثعب يهدان الحجاز ودينهم كبد الحمار ولا تحب محمدا
وإذا نشأ لك ناشئ نو غيرة فه الفؤاد أمرته فتهودا
لو كنت ما لم تخالف ديننا وتبع دين عتيك حين تشهدا
دينا لعمرك ما يوافق ديننا ما استن آل بالدي وخودا⁴

¹ جمع: د. محمد محمد حسين كثيرا من أبيات حسان في الهجاء التقليدي في كتابه: الهجاء والهاجؤون في الجاهلية، ص: 241 وما بعدها حتى 247. وانظر: حسان بن ثابت؛ حياته وشعره: إحسان النص، مبحث (صنعة حسان الهجائية)، ص: 158، وما بعدها.

² حسان بن ثابت؛ حياته وشعره: د. إحسان النص، ص: 158.

³ الضحّاك بن خليفة من بني عبد الأشهل، وهم بطن من الأوس، كان يتهم بالنفاق وحب يهود. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 2/ 172-4/ 160. (ورد في الموضوع الأول باسم: الضحّاك بن ثابت، وورد في الموضوع الثاني باسم: الضحّاك بن خليفة، ويبدو أنه الصواب كما ذكر محقق ديوان حسان، ص: 1/ 192).

⁴ ديوان حسان: ص: 1/ 192، ق 82.

العروق: ج عرق، وعرق كل شيء: أصله، وقصد بقوله: (أعيت على الإسلام أن تتمجدا) أنه وإن أسلم فإن إسلامه عجز عن تمجيده لإعراقه في الكفر، والمجد: الشرف والكرم.

يهدان الحجاز: يهوده، وقوله: (كبد الحمار) إما وصف لدينهم، وفيه تسفيه، أو مفعول به لفعل محذوف تقديره: أعني كبد الحمار، وقال صاحب شرح ديوان حسان: "ولم أف على هذه الكتابة لغير حسان ولعله يريد البلادة أي بلاد أهل هذا الدين." انظر: شرح ديوان حسان بن ثابت: البرقوقي: ص: 147.

الفة: الكليل اللسان العبي عن حاجته، وأراد به الضعيف الساقط، عتيك: رجل من الأوصار، استن: اضطرب، والآل: السراب، البدي: واد لبني عامر، خود: اضطرب.

هذا الهجاء قائم على نفي القيم الإسلامية المتمثلة في محبة النبي الكريم، واتباع أوامر الإسلام، ونعت المهجو بكل ما يخالف هذه القيم، من محبة اليهود الذين كانوا يدبرون المكائد للنبي وللمسلمين، وعدم محبة النبي الكريم، ومخالفة ما يدعو إليه الإسلام، واتباع ما لم ينزل به الله سلطاناً، وفي هذا كله ما فيه من إساءة لمن يدعي الإسلام ويظهره، ويخفي في قلبه المكر والبغض ونية الغدر، وإن لجوء حسان إلى هذا الهجاء القائم على نفي القيم الإسلامية يدل على براعة وحكمة، فحسان يقتنص كل ما يحقق غايته في إيذاء المهجو وتسفيه شأنه، فإذا كان المهجو من الكفار فإنه يلج على الهجاء بالقيم والمعاني التقليدية، لأن الكافر لا يأبه لشأن الإسلام، ولا يضيره أن يعير بالكفر، وحسان إنما كان يريد التأثير في (الجماهير)، "ولم يكن التعبير بالشرك وعبادة ما لا يعقل ومخالفة الخلق القويم ليصنع في هذا المقام شيئاً، فالهجاء فن يعتمد على الواقع وعلى القيم الأخلاقية والاجتماعية كما يتصورها العصر".¹ وأما إذا كان المهجو منافقاً فإن هذا يتيح أمام حسان مجالاً واسعاً لفضحه من خلال تجريده من معاني الإسلام وقيمه، وهذه البراعة لا تستغرب من شاعر تمرس بفن الهجاء وأتقن كثيراً من أساليبه في جاهليته، حتى إذا أسلم راح يستحدث من الأساليب ما يوافق فهمه للشعر وتوظيفه له توظيفاً اجتماعياً أخلاقياً في إطار الدعوة الإسلامية.

ولا يقتصر الهجاء بالتجريد من القيم الدينية في شعر حسان على هجاء الأفراد، بل يتناول أيضاً بعض القبائل، فقد هجا بني هذيل الذين غدروا بالمسلمين يوم الرجيع² هجاء سفه فيه شأن قبيلة هذيل، فتناول كثيراً من القيم الإسلامية التي لها صلة ببعض الشعائر الدينية مثل العمرة والحج، ثم جرد أبناء هذيل من إدراك القيم التي تتصل بهذه الشعائر، وبين انعدام حظهم منها كلها، فهم -والحال كذلك- لا يمتون إلى الإسلام

¹ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: محمد محمد حسين، ص: 193.

² خبر يوم الرجيع: قدم وفد من قبائل عَصَل والقَارَة (من خزيمة) على رسول الله في السنة الثالثة للهجرة، فطلبوا منه أن يرسل نفراً من أصحابه إليهم ليعلموهم الإسلام، فأرسل إليهم ستة من أصحابه، فلما كانوا في طريقهم إليهم مروا ببني هذيل، فأحاطوا بهم وأعطوهم العهد والميثاق إن نزلوا بهم ألا يقتلوا منهم رجلاً، فلما استمكثوا منهم غدروا بهم، فقتلوا منهم، وأسرُوا خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، ثم باعوهما بمكة بأسيرين لهذيل، فاشتري خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وقتلوه وكان خبيب قتل الحارث يوم بدر - وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية وقتله. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 178 / 3، السيرة النبوية: ابن كثير، ص: 128 / 3.

بسبب أو صلة، وكان لنعتهم بصفات الخيانة والغدر وعدم إدراك حقائق الإسلام وتطبيق شعائره أثر واضح في كشفهم وتحقير شأنهم في المجتمع آنذاك.¹

ووظف حسان هذا الأسلوب القائم على أساس ديني في هجاء أهل الكتاب، ولا سيما اليهود الذين جمعتهم والمسلمين في بداية الدعوة أحداث قامت على العداة والغدر من جهة اليهود، وقوبلت بالدفاع عن الدعوة والعقوبة على الخيانة وردّ الاعتداء من قبل المسلمين، فبين حسان أنهم كانوا على يقين مما جاء به النبي محمد ﷺ، وأن كتبهم قد أخبرتهم به وبرسالته، لكنهم لم يؤمنوا له لما دعاهم، وآذوه بالقول والفعل، واثتمروا مع قريش من أجل القضاء على دعوته، فاقترضت إساءتهم إليه ردًا من المسلمين، وكان الشعر على قدر المسؤولية في الدفاع عن نبي الله، واستل حسان لسانه ومضى يهجو به اليهود، وله شعر ذكر فيه ما حلّ بيني قريظة الذين أسأوا إلى المسلمين يوم الخندق، فلقوا منهم لاحقًا الشدة في العقاب²، قال:

لقد لقيت قريظة ما عطاها وحلّ بحصنها ذلّ ذليل
وسعد كان أنذرهم بنصح بأن إلههم ربّ جليل
فما برحوا بنقض العهد حتى فلاهم في بلادهم الرسول³

تتضح القيم الدينية التي بنى حسان عليها هجاءه هذا من خلال ردّ ما حلّ بمهجويه من إذلال إلى غدرهم بالمسلمين ونقضهم عهدهم، وما يحمله هذا الأمر من مخالفة صريحة لإرادة الله تعالى، فالباعث على هجائهم باعث ديني، ولا يلتفت حسان إلى المعاني الماثورة التي اعتاد أن يهجو بها، من تعبير بالأنساب، ونعت بالجبن والفرار، ووصف باللؤم، وما إلى ذلك مما كثر في شعر الهجاء عنده، ولكنه يلجّ على معنى (الغدر) الذي بات صفة ملازمة لليهود عنده وعند غيره من الشعراء، وإذا كان العربي منذ الجاهلية يأنف

¹ ديوان حسان: ص: 173 / 1.

² خرق يهود بني قريظة عهدهم مع المسلمين يوم الخندق، وراحوا يتحرشون بهم، وبلغ إيذاؤهم وإفسادهم مبلغًا لا يحتمل. فلما انتهى المسلمون من شأن غزوة الخندق أمر النبي بحصار بني قريظة في حصونهم، تمهيدًا لمحاسبتهم على ما كان منهم. ولم تقع بين الطرفين مواجهات لأن اليهود خافوا وتخاذلوا عن قتال المسلمين، وارتضوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ، وهو من الأوس الذين كانوا مواليهم، ووافق حكم سعد فيهم حكم الله ورسوله. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 284/3.

³ ديوان حسان: ص: 1 / 327، ق 165.

عطاها: أسخطها وساءها، فلاهم: قتلهم بالسيوف.

من الغدر، ويأبى أن يهجي به، ويحرص على أن يتحلى بالوفاء، ويعدّ الوفاء من قيم المروءة، فإن العربي المسلم قد تضاعف عنده الشعور بالنفور من الغدر، والإلحاح على قيمة الوفاء، لأن الموثيق والعهد اكتسبت في ظل الإسلام أهمية دينية خاصة لها حظها الوافر من التقدير، ذلك لأن آيات كثيرة في القرآن الكريم حضّت على الوفاء بالعهد، وعدت من يفي بالعهد مؤمناً حقاً، ومن يغير بالعهد خائناً يستحق غضب الله تعالى وسخطه¹. ومن هنا فإن إلحاح حسان على هجاء اليهود بالغدر قائم على أساس ديني وثيق الصلة بالموروث الذي استحسنته الإسلام في العرب وعده من مكارم الأخلاق. وسلك كعب بن مالك مسلك حسان، فأفاد من القيم الدينية ووظفها في هجاء اليهود، قال يذكر إجلاء بني النضير²:

لقد خزيت بغيرتها الحُبورُ كذاك الدهرُ ذو صرفٍ يدورُ
وذلك أنهم كفروا بربِّ عزيزٍ أمره أمرٌ كبيرُ
وقد أوتوا معاً فهمًا وعلمًا وجاءهم من الله النذيرُ
...
فقالوا ما أتيت بأمرٍ صدقٍ وأنت بمُنكرٍ مّا جديرُ
...
فلما أشربوا غدرًا وكُفراً وحاد بهم عن الحقِّ النفورُ
أرى الله النبيَّ برأيِ صدقٍ وكان الله يحكمُ لا يجورُ
...

¹ من تلك الآيات -على سبيل التمثيل- قوله تعالى: ﴿بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ آل عمران: 76، وقوله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ الرعد: 13: 20، وقوله تعالى في وصف المؤمنين أيضًا: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ المؤمنون: 23: 8، وقوله تعالى: ﴿وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً﴾ الإسراء: 17: 34.

² أظهر بنو النضير العداء للنبي الكريم والمسلمين يوم أُحد، ونقضوا عهدهم معهم وراحوا يدبرون المكائد بعد هزيمة المسلمين في أُحد لقتل النبي الكريم، يساندتهم المنافقون بزعامه عبد الله بن أبي، فأندرهم النبي بالرحيل عن المدينة، فرفضوا، وتحصنوا مستعدين للحرب، ووقع بينهم وبين المسلمين قتال دام نحو عشرين يومًا، انتهى بهزيمة بني النضير، واستسلامهم وطلب المصالحة، فقبل النبي بإجلالهم وكفّ دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم، إلا الدروع، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، تاركين للمسلمين وراءهم مغنم كثيرة. انظر: السيرة النبوية: ابن هشام: ص: 199/3-201؛ موسوعة اليهود واليهودية: عبد الوهاب المسيري، ص: 236/4.

فَعُوْدِرَ مِنْهُمُ كَعْبٌ صَرِيْعًا فَذَلَّتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضِيْرُ

...

فَتَلَكَ بَنُو النَّضِيْرِ بَدَارِ سَوْءٍ أَبَارَهُمْ بِمَا اجْتَرَمَ الْمُبِيْرُ
غَدَاةَ أَتَاهُمْ فِي الزَّحْفِ رَهْوًا رَسُوْلُ اللهِ وَهُوَ بِهِمْ بَصِيْرُ

...

فَقَالَ السَّلْمَ وَيَحْكُمُ فَصُدُّوا وَحَالَفَ أَمْرَهُمْ كَذِبٌ وَزُورُ
فَذَاقُوا غَبَّ أَمْرِهِمْ وَبِئَالًا لِكُلِّ ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ بَعِيْرُ
وَأَجَلُّوا عَامِدِيْنَ لَقِيْنَقَاعٍ وَغُوْدِرَ مِنْهُمْ نَخْلٌ وَدُوْرُ¹

تعدّ هذه الأبيات وصفًا تاريخيًا لحادثة إجلاء بني النضير، فالشاعر لم يجعلها خالصة للهجاء، إلا أن معاني الهجاء واضحة فيها من خلال رسم صورة اليهود الذين أوتوا (العلم والفهم) وكان منهم (الخبور) -وتشير هذه الكلمة إلى إجلال المسلمين لهم ولديانتهم السماوية- ولكنهم أضمرُوا الغدر للنبي محمد ﷺ وللمسلمين، ونقضوا عهودهم، فاستحقوا لذلك أن يصفهم كعب بصفات الغدر والكفر، واستحق أحد كبارهم -وهو كعب ابن الأشرف²- أن يقتل شرّ قتلّة، وأن يُترك (صريعًا)، وما أبعد هذا الوصف شأوا في التقدير والإجلال من وصف (الشهيد) الذي يوصف به من يقتل في أرض المعركة من المسلمين. ومن الواضح أن هجاء كعب كان يعتمد الأساس الديني، فالعداء بينه وبين مهجويّه ليس عداء شخصيًا ولا قبليًا، ولكنه هجاء موجّه إلى خصوم (فكريين)³ آذوه وآذوا جماعة المسلمين وأخلّوا بمواثيقهم فاستحقوا الذمّ، واستخدم الشاعر صفات ونعوتًا مستمدة في مجملها من المصدر الديني، فأولئك المهجورون يتصفون بالعداء والكفر، وقد

¹ السيرة النبوية: ابن هشام، ص: 209/3-210.

الخبور: ج الخبر وهو العالم من علماء اليهود خاصة، صرف الدهر: نوابه وحدثانه، جدير: حقيق وخليق، أبارهم: أهلكهم، اجترموا: اكتسبوا، رهو: المشي في سكون، السلم: الصلح، غب الأمر: عاقبته، الويال: النكال، عامدين: قاصدين.

² شاعر يهودي طائي، وأمه من يهود بني النضير، نشأ في أخواله وكان فيهم سيّدًا، تعرّض للنبي الكريم وأصحابه بالهجاء والتحريض عليهم، وشبب بنساء المسلمين، وبكى قتلى بدر، فأرسل النبي جماعة من الأنصار قتلوه في حصنه عام ثلاثة للهجرة.

انظر: السير والمغازي: ص: 316-317؛ أنساب الأشراف: ص: 1/ 331؛ معجم الشعراء: ص: 207.

³ انظر: بنية القصيدة العربية: وهب رومية، ص: 298.

امتزجت هذه الصفات بطبائعهم إلى حدّ الإشراب، واتصفوا كذلك بإنكار الحقّ ومجانبته، بل النفور منه، فكانت عاقبة أمرهم وبالأّ وسوءاً، وأجلوا صاغرين.

وإذا ما عاد الباحث إلى قول الأصفهاني عن إلحاح ابن رواحة على الجانب الديني في هجائه، وتميّزه من صاحبيه في مسلكه الفنّي هذا، فإنه لا يكاد يعثر على شعر لابن رواحة يؤكد هذا الحكم، وتظهر فيه الملامح الإسلامية المستحدثة في الهجاء، وهذا أمر يدعو إلى الاستغراب، ولا يمكن تعليل ندرة هذا الهجاء في ديوانه وفي المصادر إلا بالظن بأن هذا الشعر قد ضاع في جملة ما ضاع من تراثنا الشعري، أو أنه ربّما أسقط عمداً من المصادر لما تضمّنه من إساءة إلى بعض من أسلم لاحقاً وما كان يسره أن يذكر بشعر فيه تعبيره بالكفر.

قال ابن رواحة يهجو أبا سفيان، وكان أخلف وعده في المجيء إلى بدر لمحاربة النبي ﷺ:

وَعَدْنَا أبا سفيانَ بَدْرًا فلم نَجِدْ	لميعادِهِ صدقًا وما كان وإيّا
فَأقسَمُ لَوِ وإفيتنا فلقيتنا	لأبنتِ نَمِيمًا وافتقدتِ المَوالِيا
عَصِيئُ رسولَ اللَّهِ أفَّ لَدِينِكُم	وأمرِكُمُ السّيءِ الَّذي كانَ غاويّا
فإيّي وإن عَفَّئُمونِي لَقائِلٌ	فدَى لرسولِ اللَّهِ أهلي وماليّا
أطعناهُ لم نعدِلُهُ فينا بغيرِهِ	شهابًا لنا في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هاديّا ¹

أسس الشاعر هجاءه على ركيزة إسلامية، فنعى على أبي سفيان كذبه، وفضح تهريه من وفائه بوعده، وإذا كانت قيمتا الصدق والوفاء من القيم الخلقية التي حرص العربي على التحلّي بهما دومًا، فإن هاتين القيمتين اكتسبتا بعد الإسلام أهمية كبيرة وقيمة واضحة، لما كان من إشادة الإسلام بهما وإغراء المؤمنين بالتزامهما، ولذلك فإن ذكرهما يعد من توظيف المألوف في سياق جديد، وكان إخلاف أبي سفيان وعده منفذًا استطاع الشاعر من خلاله أن ينفذ إلى تهديد الكافرين ووعيدهم بما ينتظرهم من قتل وتفريق على أيدي المسلمين. ومن الملامح الدينية التي نجدها في أبياته هذه هجاء الكافرين هجاء جماعياً وتعبيرهم بمخالفة النبي الكريم، وعدم اتباعه على الطاعة، ولذا استوجبوا التوبيخ

¹ ديوان عبد الله بن رواحة: ص: 109.

وافيتنا: أنيتنا، أب: رجع، الموالى: ج المولى وهو الناصر والحليف، الغاوي: الضالّ الفاسد.

(أفّ لدينكم) لاتباعهم الباطل وإصرارهم عليه، وتجنّبهم عامدين سبيل الحق الذي جاء به النبي محمد، وقاده هذا الهجاء الديني إلى الفخر، فإذا به يفخر بنصرة الإسلام ونبيه الكريم، وينتقل بسلاسة من ضمير المتكلم إلى ضمير الجماعة فاتحاً بذلك باب الفخر الجماعي بقومه الذين أطاعوا النبي واهتدوا بهديه وقدموه فيهم. ولا يبدو مفهوم الجماعة في شعره مطابقاً لمفهومه النمطي في الشعر العربي القديم، فلا يدل ضمير الجماعة في فخره (وعدنا، وافيتنا فلقيتنا، أطعناه، لم نعدله فينا بغيره، شهاباً لنا) على جماعة تربطها وحدة الدم والنسب، ولكنه يدل على جماعة تجمع أفرادها وحدة الإيمان والمعتقد، وكذلك يدل ضمير الجماعة في هجائه (عصيتم، أفّ لدينكم، أمركم السيء) على الجماعة الخصم، ومصدر الخصومة - كما هو واضح - الاختلاف في العقيدة والدين، وهذا التصنيف الجماعي القائم على أساس الدين والاعتقاد تصنيف جديد، فضلاً عن أن مزج الفخر -الذاتي منه والجماعي- بالهجاء الديني الجماعي لا يخلو من طرافة إذا ما نظرنا إلى الغاية الدينية التي تكمن خلف هذه المعاني، وإلى السياق الديني الذي جمعها.

إن النماذج التي تقدّم الحديث عنها تبين أن الاتكاء على المصدر الديني كان جلياً عند شعراء الدعوة الإسلامية في سياق الهجاء، ولكنه لم يطغ على انكائهم على المصدر الموروث، فقد كثر الهجاء في شعر هؤلاء، ومرّد ذلك إلى ما كان بينهم وبين خصومهم وأعدائهم من أحداث، وأسفر هذا الهجاء عن تطوّر فن النقائض، فخاض الطرفان صراعات مسلحة، رافقها الشعر وأزرها وكان سلاحاً ماضياً من أسلحتها، وكان هذا الهجاء الذي استطار بين الجهتين يركّز على أسس تقليدية موروثية، عمادها التعبير بالأنساب، وذكر المثالب والمطاعن، والتذكير بالهزائم، "وقد قبل النبي ﷺ من شعراء المسلمين ما تسخو به طبائعهم، ولم يضيق عليهم مجال القول بالزلمهم القيم الإسلامية الجديدة، ولم يرَ بأساً في أن يدلّ حسّان بن ثابت على أبي بكر ليعينه في أنساب قريش ويدلّه على عوراتهم، وهو يقول لشعراء المسلمين: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم".¹ ولم يظهر الأثر الديني إلا في مواضع محددة من هجاء شعراء الدعوة، تمثلت بهجاء المنافقين واليهود الذين وقفوا من الإسلام مواقف عدائية، ولجأ شعراء الدعوة إلى هجاء هؤلاء بالقيم المستمدة من الإسلام لأنهم كانوا على يقين من أن مهجويهم على علم بالإسلام وقيمه وتعاليمه، وأن في هجائهم لهم هجاءً دينياً إساءة صريحة لهم وخطأ من شأنهم وفضحاً لتسترهم بالدين ظاهراً وتأميرهم على المسلمين خفية. ولا ينبغي أن يغفل

¹ الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: محمد محمد حسين، ص: 193.

المرء عن التفاوت في اعتماد المصدر الديني أساساً يُستمدّ منه الهجاء بين شعراء الدعوة أنفسهم، لما بينهم من فوارق فردية في التمرّس بالهجاء في جاهليتهم، وارتباط أشعار بعضهم بمناسبات قبلية اقتضت المهاجاة، من جهة، وفي الإقبال على الإسلام وقيمه تمثلاً وفهمًا، واتخاذ الشعر سلاحًا للدفاع عنه، من جهة أخرى.

3. البعد الديني في شعر شعراء الدعوة في سياق الرثاء:

كان للإسلام - كما مرّ - أثر كبير في تغيير نظرة الشعراء إلى الشعر، فقد أصبح للشعر عند معظمهم - ولا سيما عند شعراء الدعوة - وظيفة إسلامية خالصة، تمثلت في تمجيد الدين الجديد، والدعوة إليه والتبشير به، ومدح نبيه الكريم، والفخر به وبالمسلمين، ورثاء شهداء المسلمين الذين سقطوا في المعارك والغزوات التي دارت بين المسلمين وخصومهم، ثم رثاء النبي الكريم، ورثاء خلفائه الراشدين، ومن هنا فقد كثر الرثاء في شعر شعراء الدعوة خاصة، واتسم هذا الرثاء بسمات وأبعاد دينية جديدة، وظهر فيه تطور بعض المفاهيم، وتبدّل صورتها عما كانت عليه في الجاهلية، بفضل الإسلام، ويمكن أن نميز في هذا الرثاء: رثاء الأفراد: (رثاء النبي الكريم، رثاء شهداء بعينهم مثل حمزة وخبيب، ..، رثاء الخلفاء الراشدين)، والرثاء الجماعي (رثاء شهداء المسلمين).

فإذا ما نظر المرء في رثاء الأفراد (رثاء الشهداء خاصة) فإنه يجد شخصية حمزة ابن عبد المطلب تتصدّر صورة الرثاء في بداية عهد البعثة الإسلامية، فقد وُلد استشهاد حمزة يوم أُحد حزنًا عميقًا في نفس النبي ﷺ وفي نفوس المسلمين جميعًا، وانبرى شعراء الدعوة بواكبون الحدث، فرثى حسان حمزة بشعر كثير، منه قوله:

لدى البأسِ مغوارِ الصباحِ جسورِ	تُسائلُ عن قَرْمِ هِجَانِ سَمِيدِ
بعيدِ المَدَى في النائباتِ صَبَورِ	أخي ثقة يهتَزُّ للعُرفِ والنَدَى
ورضوانُ ربِّ يا أُمَامَ غَفُورِ	فقلْتُ لها إنَّ الشهادةَ راحةٌ
إلى جنّةٍ يرضى بها وسرورِ	دعاهُ إلهُ الحقِّ ذو العرشِ دعوةٌ
لحمزةَ يومَ الحَشْرِ خيرُ مَصيرِ ¹	فذلك ما كُنَّا نُرجي ونرتجي

¹ ديوان حسان: ص: 133/1، ق36.

القرم من الرجال: السيّد المعظم، هجان: كريم الحسب، السميذع: السيد الكريم الشريف السخي الموطأ الأكناف، مغوار: مقاتل كثير الغارات، جسور: شجاع، العُرف: المعروف والإحسان، أُمَامَ: مرخّم أمانة وهي بنت حمزة ؑ.

تكشف الأبيات عن كثير من القيم التقليدية، "وتجبهنا [في التأبين الإسلامي] تلك القيم التي استمرت فيه على نحو من الأثحاء، كالمروءة والشجاعة والكرم والحلم والرزانة والنجدة والوفاء والإخلاص، وما ماثلها."¹ وتعمد حسان أن يأتي بتلك الصفات في صيغ لفظية غريبة (قرم، هجان، سميذع، مغوار، جسور...) إلا أن إلحاحه على هذه القيم التقليدية في رثاء حمزة لم يحل دون بروز الأثر الديني، فكانت إشارته إلى (الشهادة، ورضوان الرب، وإله الحق، والجنة، والمصير، ويوم الحشر)، ومن المؤكد أن هذه المفاهيم ظهرت في شعر حسان بعد أن قرّت في ذهنه بتأثير الإسلام، فقد بدأ تغيير مفهوم الموت يوّتي ثماره في مرثي صدر الإسلام، فنرى أن الاطمئنان إلى مصير المرثي والرضا بقضاء الله عز وجل حلّ محلّ الجزع والولولة عليه والتشكي من الدهر وسبّه، والدعاء على النفس بالويل والثبور، وبدأ الشاعر الإسلامي يتحدّث عن مصير المرثي وما يتلقاه من ترحاب وتكريم في الجنة.² ومن المؤكد أيضاً أن الشاعر عمد إلى التعبير عن هذه المفاهيم الجديدة بكلمات وتراكيب تتصل اتصالاً مباشراً بمعجم إسلامي جديد.

ولعل مفهوم الشهادة كان أبرز المفاهيم الإسلامية الجديدة التي جعلت الرثاء الإسلامي ينأى عن الرثاء الجاهلي، فقد عزز اقتران الموت بمفهوم الشهادة عند المسلمين الإقبال على اللذة الكبرى في الاستشهاد والفوز برضوان الله ودخول الجنة.³ واكتسبت صورة المرثي هالة من الوقار والجلال بفضل احتفال المسلمين بقيمة الشهادة، وأخذت تبرز في شعر الرثاء الإسلامي الجديد سمات لم تكن تظهر في الرثاء الجاهلي، بفضل إيمان المسلمين بقيمة الشهادة ومصير الشهيد، ولعل أبرز تلك السمات: سمة الاستبشار بمصير الشهيد، والدعاء له، والابتعاد عن مظاهر الحزن والتفجع، والاكتفاء بتأبين المرثي/ الشهيد تأبيناً هادئاً رزيناً لا يخرج فيه الشاعر عن تعاليم الإسلام. ولذلك كان "الفارق بين رثاء المسلمين لذويهم وبين رثاء الجاهليين مستنداً إلى الغاية من القتال لا إلى القتال نفسه، فالقتيل انتهت حياته بموته، ولكنه في المفهوم الإسلامي انتقل إلى النار، أما الشهيد فقد عبر من بوابة الشهادة إلى جنات الخلد."⁴ ولا يخرج رثاء عبد الله بن رواحة حمزة عن الأمور التي تقدّمت الإشارة إليها، قال عبد الله:

¹ الرثاء في الجاهلية والإسلام: حسين جمعة، ص: 171.

² المرثي الشعرية في عصر صدر الإسلام: مقبول علي بشير النعمة، ص: 30-31.

³ قصيدة الرثاء؛ جنور وأطوار: حسين جمعة، ص: 23-24.

⁴ الرثاء في الجاهلية والإسلام: حسين جمعة، ص: 172.

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا وَمَا يُغْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ
 عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا أَحْمَزَةُ ذَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ
 أُصِيبَ الْمَسْلَمُونَ بِهِ جَمِيعًا هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
 أبا يَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبَرُّ الْوَصُولُ
 عَلَيْكَ سَلَامٌ رَبِّكَ فِي جِنَانٍ مُخَالِطُهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ¹

يمتزج الحزن على فقد حمزة في نفس الشاعر ونفوس المسلمين جميعًا بالصبر والتسليم والإيمان بالجنة مصيرًا للشهيد، الذي قضى في سبيل الدعوة الإسلامية، فكان (أسد الإله)، وهذا تركيب إضافي تنتشر منه معاني الإجلال والتقدير، ويتبين المرء - بجلاء - في هذه الأبيات هدوء العاطفة واتزانها وصدقها، وتوظيف القيم الإسلامية توظيفًا يدل على تغيير ملحوظ في اتجاه الرثاء، فقد أخذ (المضمون) يتغير ليصبح مضمونًا ذا صبغة إسلامية، ولا يستغرب هذا الأمر إذا ما نظر المرء إلى الأثر العظيم الذي أحدثته الإسلام في الحياة والفن والقيم، فقد "وجّه المرء إلى نتيجة الفعل، واشترط صلاحه أولًا،...، وجعل الإنسان ملتزمًا في قيمه وسلوكه بكل ما يطلبه منه الدين الجديد."² وكان هذا التطور في المضمون سابقًا على التطور في الشكل الفني، وسببًا له، فالمضمون هو الذي يتجدد في البداية دائمًا.³

وبناء هذه المراثية "يوحي ببناء المراثي القديمة، إذ صوّر أثر الفقد في نفسه ونفوس المسلمين، وعبر عن حزنهم أحسن تعبير، ثم أبّن الشهيد وأثنى عليه، ومن ثمّ افتخر وأندر. فالقصيدة خالصة للرثاء سواء في المقطع السابق الدالّ على البكاء والتأبين والتعزي، أم في بقية القصيدة الشاملة للفخر والإنذار، ولعل ما يميّز هذا المقطع خلوص مجمل معانيه لمفهوم الإسلام، بينما تدور باقي القصيدة في إطار المعاني الموروثة الجاهلية."⁴

¹ ديوان عبد الله بن رواحة: ص: 98.

العويل: الصباح والبكاء، أركان كل شيء: جوانبه التي يستند إليها ويقوم عليها، الماجد: الكريم المعطاء، البر: العطف، الوصول: من يصل رحمه.

² الرثاء في الجاهلية الإسلام: حسين جمعة، ص: 171.

³ ضرورة الفن: إرنست فيشر، ص: 194.

⁴ قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 280.

وتبدو القيم الإسلامية غير منفصلة عن القيم الموروثة في رثاء كعب بن مالك حمزة، فلم يخرج في رثائه عن المعاني المألوفة المتمثلة ببيكاء ما كان من كرمه وبأسه وشجاعته، ولم ينس أن يشير إلى مكانته في نفس النبي الكريم ونفوس المسلمين، فضلاً عن إشارته إلى الغاية التي سقط حمزة شهيداً في سبيلها، وهي نصرته النبي ﷺ والدفاع عن الإسلام، قال كعب:

ولقد هُدِدْتُ لَفَقْدِ حَمَزَةٍ هَدَّةً ظَلَّتْ بِنَاتُ الْجَوْفِ مِنْهَا تَرَعُدُ
قَرْمٌ تَمَكَّنَ فِي ذُوَابَةِ هَاشِمٍ حَيْثُ النَّبِوَّةُ وَالنَّدَى وَالسَّوْدُ
وَالْعَاقِرُ الْكُومَ الْجِلَادَ إِذَا عَدَّتْ رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءُ مِنْهَا يَجْمُدُ
وَالتَّارِكُ الْقِرْنَ الْكَمِيَّ مُجَدَّلاً يَوْمَ الْكَرْيَةِ وَالْقَنَا يَنْقَصِدُ
عَمُّ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ وَصَفِيُّهُ وَرَدَ الْحِمَامَ فَطَابَ ذَاكَ الْمَوْرِدُ
وَأَتَى الْمَنِيَّةَ مَعْلَمًا فِي أُسْرَةٍ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَشْهُدُ¹

ويتعرى كعب بذكر مصير الشهيد في الجنة، ومصير قتلى الكافرين في النار، فكان ختام قصيدته على هذا النحو إرساءً لسلطة البعد الديني على أبياته، وتأكيداً لصدوره عن روح المؤمن الذي تقبل ما أتى به الإسلام، من غير أن يتخلى عن كثير من القيم التي لا تخالف الإسلام ولا تعارضه، قال متعزياً:

شَتَّانَ مَنْ هُوَ فِي جَهَنَّمَ ثَاوِيًا أَبَدًا وَمَنْ هُوَ فِي الْجَنَانِ مُخَلَّدُ²

وعلى هذا النحو أخذت ملامح القيم الإسلامية تتضح في مراثي الشهداء عند شعراء الدعوة، ويمكن القول إن الإسلام قد أثر تأثيراً بعيداً في تغيير صورة الرثاء عند بعض الشعراء المسلمين، وعند شعراء الدعوة على وجه خاص، فقد راح هؤلاء يصدرون عن

¹ ديوان كعب بن مالك: ص: 159، ق 13.

الجوف ما انطبقت عليه الكتفان والعضدان والأضلاع، وبنات الجوف: الأضلاع، القرم من الرجال: السيد المعظم، الذوابة: أشراف القوم، وذوابة كل شيء أعلاه، الندى: المعروف، السوّد: السيادة، عقر البعير: قطع إحدى قوائم ثم نحره مستمكناً منه، الكوم: ج كوماً وهي الناقة الطويلة السنام، الجراد من الإبل: الغزيرات اللبن، القرن: الشجاع والنظير، الكمي: الفارس المدجج بالسلاح، المجذل: المطروح أرضاً، الكريهة: الحرب، القنا: الرماح، ينقصد: يتكسر، صفي الرجل: الذي يصفاهه الود، الحمام: الموت، المعلم: الرجل يعرف مكانه في الحرب بعلامة أعلمها.

² ديوان كعب بن مالك: ص: 160، ق 13. الثاوي في المكان: المقيم به.

مجموعة من القيم والمعاني المستحدثة، ولكن مراثيهم لم تخلُ من معاني الرثاء التي أُلّف الشعراء السابقون ذكرها، فظلت قيم الشجاعة والبأس والكرم حاضرة في مراثي شعراء الدعوة، لكنها امتزجت بمفاهيم الشهادة والثواب والجنة، أي إن الشعراء حافظوا على القيم الموروثة التي لا تخالف ما أتى به الإسلام، ووظفوها توظيفاً إسلامياً خاصاً فربطوها بالغاية الصحيحة التي يرضى عنها الإسلام.

وإذا كان بعض النقاد والدارسين قد رأى أن رغبة الشعراء في مواكبة الأحداث والمناسبات كلها، والتعبير عنها في شعرهم، أنثرت في جودة ذلك الشعر، وانحدرت بمستواه الفني، وأن معظم مراثي شعراء الدعوة كانت موافقة لمفاهيم الإسلام وتعاليمه، لكنها قليلة الحظ من الجمال، فإن ثمة من ردّ هذا الرأي، مبيّناً أن "الوضوح والدقة والأسلوب السهل الممتنع والصدق في التعبير عن المشاعر والأفكار، ونقل ذلك دون تزيد أو تكلف في الصور والخيال وتماسك النسق البنائي ووحدة موضوعه وعظمة تأثيره، دلالة على قوة وإبداع لا ضعف، علماً أنها جاءت على لسان الشاعر بعفوية وصفاء. وهي تشهد بأن الشعر إذا دخل في باب الخير المشار إليه¹ يظل إبداعاً قائماً جذاباً ومثيراً وممتعاً ومفيداً وقوياً. أما الضعف فإنما يأتي من ضعف قدرة الشاعر على التصرف في البناء الفني وعفويته في طرق سبله ومسالكها."²

ويبدو هذا الأمر جلياً في مراثي النبي الكريم ﷺ، وهي مراتب يبرز فيها البعد الديني من خلال المعاني والمعجم اللفظي الذي يواكب تلك المعاني ويعبر عنها، ويبدو فيها -في الوقت نفسه- أثر الارتجال والرغبة في التعبير عن الحادث الجلل، ومن ناقل القول أن أذكر بأن عبد الله بن رواحة قد استشهد في غزوة مؤتة في العام الثامن للهجرة، ولذلك فإن الحديث عن مراثي النبي الكريم يقتصر على شعر حسان بن ثابت وكعب بن مالك.

ولحسان شعر كثير رثى فيه النبي الكريم، وتتشابه أبياته في إلحاحه على قيم بعينها، تتمثل في ذكر ما اختص به محمد ﷺ من النبوة والرسالة، ثم ذكر القيم التي يرثى بها كل رجل شريف عادة، من وفاء وكرم وإقدام وغير ذلك، وتكثر في مراثي النبي الكريم المفردات المستمدة من المعجم الإسلامي الجديد، وهي المفردات التي تليق بهذا الرثاء، ويجد الدارس أن حسان بن ثابت قد رثى النبي الكريم ببعض القصائد القصيرة التي حاول فيها أن يعبر عن مصابه ومصاب المسلمين بالنبي محمد ﷺ، كقوله:

¹ يقصد بباب الخير ما ذكره الأصمعي في قوله: "طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية، فلما دخل شعره باب الخير من مراثي النبي ﷺ وحزمة وجعفر رضوان الله عليهم وغيرهم لان شعره." الموشح: المرزباني، ص: 85.

² قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 283-284.

بِاللهِ مَا حَمَلْتُ أَنْثَى وَلَا وَضَعْتُ
 وَلَا مَشَى فَوْقَ ظَهْرِ الْأَرْضِ مِنْ أَحَدٍ
 مِنَ الَّذِي كَانَ نُورًا يُسْتَضَاءُ بِهِ
 مُصَدِّقًا لِلنَّبِيِّينَ الْأَلَى سَالَفُوا
 مِثْلَ النَّبِيِّ رَسُولِ الرَّحْمَةِ الْهَادِي
 أَوْقَى بِذِمَّةِ جَارٍ أَوْ بِمِيعَادِ
 مَبَارَكِ الْأَمْرِ ذَا حَزْمٍ وَإِرْشَادِ
 وَأَبْدَلَ النَّاسِ لِلْمَعْرُوفِ لِلْجَادِي¹

لقد أحسن الشاعر انتقاء المعاني المألوفة التي تمثل (مكارم الأخلاق) التي بُعث النبي الكريم ليتممها، وجمع بين هذه المآثر وصفات النبوة وتصديق الرسل، معبراً عن تلك المعاني بلغة مستمدة من المعجم الإسلامي الجديد (النبي، رسول الرحمة، الهادي، كان نوراً، مبارك الأمر، مصدقاً للنبيين)، ومعززاً ذلك كله بصيغة القسم (بالله)، وهي الصيغة المألوفة التي اكتسبت بعد الإسلام صبغة إسلامية خالصة، وجاء وصف النبي الكريم بالنور مستوحى من القرآن الكريم، ومعبراً عن معنى الهداية والإرشاد، ويرد هذا الوصف في غير ما موضع من مرثي حسان للنبي الكريم، فمن ذلك قوله:

كَانَ الضَّيَاءَ وَكَانَ النَّورَ تَنْبُعُهُ وَكَانَ بَعْدَ الْإِلَهِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ²

ونجد لحسان قصائد طويلة في رثاء النبي ﷺ، يبدو أنه أشدها بعد أن هدأ انفعاله، واستقرت ملامح الحياة الجديدة أمام ناظره، ولن أتوقف عند هذه المرثية كلها، إذ لا يكاد يلمح أثر اختلاف يميز إحداها من غيرها، ولكن لا بد لي من التوقف عند مرثية من مرثيه الطويلة، تميزت بسمات فنية خاصة، تلك هي مرثيته التي افتحها بحديث الأطلال قائلاً:

بَطْيِيَّةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
 وَلَا تَمْتَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
 وَوَضَحُ أَثَارٍ وَبَاقِي مَعَالِمِ
 بِهَا حُجْرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
 مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرِّسُومُ وَتَهْمُدُ
 بِهَا مَنَبْرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
 وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ
 مِنْ اللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ

...

¹ ديوان حسان: ص: 272/1، ق 132؛ الجادي: طالب الجدوى والحاجة.

² ديوان حسان: ص: 421/1، ق 241.

عرفتُ بها رَسَمَ الرسولِ وعَهْدَهُ وقبرًا بها وارهُ في الثُربِ مُلحدٌ¹

إن ظاهر هذه القصيدة يوحي بأنها تمضي على النهج التقليدي المألوف، إلا أن تدقيق النظر يبيّن أن تعبيرًا كبيرًا قد طرأ عليها بتأثير الإسلام، فهذه الأطلال التي يقف الشاعر عليها حزينًا باكيًا لا تشبه غيرها من الأطلال. إنها أطلال لم تدرس، بخلاف ما عهدناه عند الشعراء الجاهليين، ولكنها خلت ممن كان يعطيها قيمتها وأهميتها، وهو النبي الكريم الذي انتقل إلى جوار ربّه، ومن المؤكد أن المعاني التي يخلعها حسان على هذه الأطلال جديدة، بل غريبة على حديث الأطلال التقليدي، فالحديث عن (دار حرمة، ومنبر الهادي، ومصلى، ومسجد، وحجرات)، وهذه المعاني كلها معان إسلامية بامتياز ما وجدناها في أطلال السابقين. ولا يلبث الشاعر أن ينتقل بعد هذه المقدمة الطريفة إلى تأبين النبي الكريم، فنراه يحشد لهذا الغرض طائفة من المعاني الإسلامية الجديدة التي تليق بمقام المرثي وتدلّ عليه وتقتصر عليه، فيقول:

وهل عَدَلْتُ يومًا رزِيَّةَ هالكِ رزِيَّةَ يومٍ مات فيه محمَّدُ
تقطَّعَ فيه مُنزلُ الوحي عنهُمُ وقد كان ذا نورٍ يَغورُ ويُجِدُ
يدُلُّ على الرحمنِ مَنْ يَقندي بِهِ ويُقَدُّ من هَوْلِ الخزايا ويُرَشِّدُ
إمامٌ لهم يهديهمُ الحقَّ جاهِدًا مُعلِّمٌ صدقٍ إن يُطيعوه يسعدوا
عفوٌ عن الزلاّتِ يقبلُ عُذرهم وإن يُحسنوا فاللَّهُ بالخيرِ أجودُ²

نجد في هذه الأبيات ملامح جديدة للمرثي، مستمدة مما يختصّ به بوصفه نبياً كريماً يتحلّى بفضائل يتفرد بها، وصورة المرثي - على هذا النحو - تفارق الصورة النمطية التي اعتاد الشعراء رسمها لمن يرثون، لأنها رسمت بألوان وأصباغ جديدة كل الجدة، فعبرت عن نظرة إسلامية لشخص المرثي وما تحلّى به من مآثر وفضائل.

¹ المصدر السابق: ص: 455/1، ق 282.

طيبة: المدينة سماها به النبي ﷺ، الرسم: الأثر، المعهد: الموضع الذي كنتَ عهدته، تعفو: تدرس، تهمد: تبلى، الربع: المحلّة والمنزل، واره: غيبه وستره، قبر ملحد: له شقّ يكون في جانبه موضع الميت لأنه أميل عن وسطه إلى جانبه.

² ديوان حسان: ص: 456/1، ق 282.

الرزِيَّة: الرزِيَّة بتسهيل الهمز: المصيبة، يغور: يأتي الغور وهو ما انخفض من الأرض، ينجد: يأتي النجْد وهو ما ارتفع من الأرض، الخزايا: الأمور القبيحة.

وعلى الرغم من كل ما وجدناه من جدة وطرافة في صورة النبي الكريم ﷺ في هذه المرثية فإن خيوطاً تقليدية نمطية تسالت إلى نسيج الصورة، لكنّها لم تقسدها، وإنما تضافرت مع النعوت الجديدة فأضفت على صورة المرثي البهاء والجلال، وهذه الخيوط التقليدية مستمدة من معاني الكرم ورفع النسب والتحلي بمكارم الأخلاق التي كان العربي يفخر بها، وهي - في الحقيقة - مآثر دنيوية يمكن أن تطلق على أي سيد من سادات العرب.

إن الملاحظات التي سُجّلت في أثناء الحديث عن مرثي حسان بن ثابت تنطبق -أو تكاد- على مرثي كعب بن مالك في النبي ﷺ، فله فيه مرثية¹ تمتزج فيها المعاني الإسلامية بالمعاني الموروثة، ويلاحظ أن المعاني التقليدية عند كعب ظلت تحيط بالجديد من كل جانب، وتحاصره، ولم يكن هيئاً على الشاعر أن يتخلص منها وينقلب عليها، بعد أن ألفها مدّة من الزمن قبل إسلامه، ولا شك في أنه لم يكن يرى في ذكر هذه المآثر الدنيوية ما يضير، لأنها تدل كلها على المكارم.

ولن أتوقف مطولاً عند مرثي كعب، اكتفاءً بما تقدّم في أثناء الحديث عن مرثي حسان. وبالنظر إلى رثاء الخلفاء الراشدين في شعر كل من حسان وكعب يرى الدارس أن الأثر الديني قد غدا أكثر وضوحاً وتميزاً عما كان عليه في رثاء الشهداء ورثاء النبي ﷺ، وقد أكثر الشاعران من الحديث عن مناقب المرثي وفضائله وأعماله وسلوكه، وبنيا تأبينهما على أسس إسلامية متينة، فألحا على ذكر القيم الجديدة كالإيمان والتقوى والعدل والرحمة، وغيرها، قال حسان بيكي الخليفة أبا بكر ﷺ:

إذا تذكّرت شجواً من أخي ثقة	فأذكّر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خير البرية أنقاها وأراقها	إلا النبي وأوقاها بما حملا
والثاني الصادق المحمود مشهده	وأول الناس منهم صدق الرُسلا
وثاني اثنين في الغار المُنيف وقد	طاف العدو به إذ صنع الجبلا
عاش حميداً لأمر الله متبعا	بهدي صاحبه الماضي وما انتقلا
وكان جب رسول الله قد علموا	من البرية لم يعدل به رجلا ²

¹ ديوان كعب بن مالك: ص: 147.

² ديوان حسان: ص: 125/1، ق 32.

الشجو: الهم والحزن، حب الرسول: محبوبه.

لا يخرج هذا التأبين عن المعاني الإسلامية الجديدة التي اختص بها المرثي (مرافقته النبي في الغار، السبق إلى تصديق النبي)، أو التي اكتسبها بفضل الإسلام (التقوى، خلافة النبي)، ويبدو الإلحاح على هذه المعاني الجديدة سمة مشتركة في مرثي حسان للخلفاء الراشدين الواحد منهم تلو الآخر، قال في رثاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

[و] فَجَعْنَا فِي—رَوْزٍ لَا دَرَّ دَرُّهُ بِأَبْيَضَ يَتْلُو الْمُحْكَمَاتِ مُنِيبٍ
رَوْوْفٍ عَلَى الْأَدْنَى غَلِيظٍ عَلَى الْعِدَا أَخِي ثَقَةٍ فِي النَّائِبَاتِ نَجِيبٍ
مَتَى مَا يَقُولُ لَا يَكْذِبُ الْقَوْلَ فِعْلُهُ سَرِيعٍ إِلَى الْخَيْرَاتِ غَيْرِ قَطُوبٍ¹

لقد راح حسان يرسم للمرثي صورة جديدة أثر فيها الإسلام تأثيراً بعيداً، لكنه سرعان ما اتخذ من هذه الصورة الجديدة (نموذجاً) أخذ يطبقه على الخلفاء جميعاً، فإذا كل منهم (أخو ثقة)، يتَّصف بالصدق والعدل والرحمة، وتلاوة كتاب الله. ولعل هذه الصورة النمطية تجعل الدارس يقرر - في كثير من الاطمئنان - أن هذه المرثي - على ما فيها من حرارة العاطفة وصدقها، واستلهاهم البعد الديني الإسلامي - لم ترق إلى مستوى الأشخاص الذين قيلت في رثائهم، وظلت في مجملها سطحية تحوم حول مفهومات الحياة والموت والمصير، من غير أن تبني رؤية فلسفية تكشف عن إدراك ديني إيماني عميق. وأما كعب بن مالك فقد أثر في نفسه فقد الخليفة عثمان رضي الله عنه أكبر الأثر، فرثاه بشعر كان مداره الحديث عن الفتنة التي حلت بالمسلمين ففرقت شملهم وآلت بهم إلى فقد خليفتهم وتصدع أمرهم، وسأمل بأبيات لكعب تتضح فيها معاني تأبين الخليفة، قال فيها:

يَا لِلرِّجَالِ لِأَمْرِ هَاجٍ لِي حَزْنًا لَقَدْ عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى الدِّمَنِ
إِنِّي رَأَيْتُ قَتِيلَ الدَّارِ مُضْطَهَدًا عَثْمَانَ يُهْدَى إِلَى الْأَجْدَاثِ فِي كَفَنِ
يَا قَاتِلَ اللَّهِ قَوْمًا كَانَ أَمْرُهُمْ قَتَلَ الْإِمَامَ الزُّكِّيَّ الطَّيِّبِ الرُّدُنِ

...

¹ ديوان حسان: ص: 273/1، ق 133.

فيروز: هو فيروز النهاوندي ويكنى أبا لؤلؤة المجوسي قاتل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لا در دره: لا زكا عمله، وهو دعاء عليه، والدر: أفضل ما يحتلب، أبيض: نقي العرض من الدنس والعيوب، المحكمات: آيات القرآن الكريم، النجيب من الرجال: الكريم الحبيب، قطوب: عبوس.

قد قَتَلُوهُ نَفْيًا غَيْرَ ذِي أُبْنٍ صَلَّى الْإِلَهَ عَلَى وَجْهِ لَهُ حَسَنٍ¹

تتميز معاني الرثاء في هذه الأبيات بأنها مستمدة من الأحداث الخاصة التي رافقت مقتل الخليفة الشهيد عثمان، ولا يخرج الشاعر في تأبينه عن الصفات الخلقية الإسلامية التي اتسم بها الخليفة في حياته، ولعل ما يلفت النظر في هذه الأبيات أن الشاعر قد لجأ إلى الدعاء مرتين، فدعا أولاً على قتلة عثمان الذين غدروا بإمام المسلمين، وأردوه في داره قتيلاً، فقال: (يا قاتل الله...) وفي هذه الاستعانة بالله على قتلة الخليفة الشهيد ما فيها من ارتكاز على أساس ديني واضح، ثم دعا للإمام الشهيد، دعاء يفيض بروح إسلامية جميلة: (صلى الإله على وجه له حسن)، "وختام القصائد بالدعاء مذهب فني جديد في جملة أشعار الرثاء والمدح الإسلامية، على حين كانت القصائد تختتم بالحكمة والأمثال في العصر الجاهلي".²

ويبدو البعد الديني خالصاً في هذه الأبيات، فالقيم الإسلامية الجديدة لا تمتزج بقيم تقليدية موروثية، وينسج الشاعر هذه القيم الإسلامية بأسلوب جديد، يرى فيه أن البكاء على الديار -على عادة الجاهليين- لا يجدي نفعاً، ولا يليق بما هو فيه من اهتمام للمصاب الجلل، فينتقل إلى التأبين الذي تشع في أعطافه حرارة العاطفة وصدقها. وللباحث أن يقول إن هذا الانصراف عن حديث الأطلال، والاقتصر على حديث الرثاء بمعانيه الإسلامية الجديدة، يمثل دعوة واضحة إلى ربط الشعر بالتجربة الإنسانية الواقعية، ويعدّ هذا الأمر من أبرز ملامح التجديد التي نجدها في شعر شعراء الدعوة خاصة، بتأثير فهمهم الجديد لطبيعة الشعر ووظيفته، وارتباطه الوثيق بالحياة.

فإذا ما اكتفينا بهذه الأمثلة من مرثي الأفراد واتجهنا بالدراسة إلى المرثي الجماعية فإننا نجد أن البعد الديني كان بارزاً في هذه المرثي على خير وجه، وتكاد مرثي شهداء المسلمين تقتصر على القيم الإسلامية الجديدة، وتغيب عنها القيم الموروثية، ويمكن تعليل ذلك بما طرأ على مفهوم الجماعة بعد الإسلام، ثم على علاقة الفرد بالجماعة، من تبدل، فقد تغير مفهوم الولاء للقبيلة، وحلت فكرة الانتماء إلى جماعة توحدتها العقيدة،

¹ ديوان كعب بن مالك: ص: 217-218، ق 67.

الدمن: آثار الديار، الأجدات: ج جدث: القبر، الزكي: الصالح، الردن: أصل الكم، وطيب الردن كناية عن طيب المرثي نفسه، أبين: عداوات.

² قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، ص: 283.

والولاء لهذه الجماعة، محلّه، ومن هنا ذابت الذات الفردية في الجماعة التي تنتمي إليها فكرياً وعقائدياً، وأخذت صورة الجماعة تطغى على صورة الفرد، وصوّر الشعر أحلام الجماعة وبطولاتها، وافتخر بفرسانها، ورثى شهداءها.
ويتميز رثاء الشهداء رثاءً جماعياً في شعر كعب بن مالك، قال يرثي شهداء أحد:

وَقَتْلَهُمْ فِي جَنَانِ النَّعِيمِ كِرَامُ الْمَادِخِلِ وَالْمَخْرَجِ
بِمَا صَبَرُوا تَحْتَ ظِلِّ اللِّوَاءِ لِوَاءِ الرَّسُولِ بِذِي الْأَضْوَجِ
...
فَمَا بَرَحُوا يَضْرِبُونَ الْكُمَاةَ وَيَمْضُونَ فِي الْقَسْطَلِ الْمَرْهَجِ
كَذَلِكَ حَتَّى دَعَاهُمْ مَلِيكَ إِلَى جَنَّةِ دَوْحَةِ الْمَوْلِجِ
فَكَلَّهُمْ مَاتَ حُرُّ الْبَلَاءِ عَلَى مِلَّةِ اللَّهِ لَمْ يَخْرَجِ
كحَمْرَةَ لَمَّا وَفَى صَادِقًا بِذِي هَبَّةٍ صَارِمٍ سَلْجَجٍ¹

بكى كعب أولئك الشهداء الذين خاضوا غمار الحرب بشجاعة وصبر، لأنهم كانوا موقنين بأن مصيرهم بعد موتهم جنة عند ربهم وحسن مقام، وكان هذا اليقين دافعاً لهم للاستبسال، ولعل اختلاف مفهوم الموت والمصير بعد الموت في نفوس المسلمين كان السبب الأبرز الذي أدى إلى اختلاف الدافع إلى القتال، فبرز مفهوم (الشهادة)، في صورة محببة إلى نفوس المسلمين، فالشهيد يلبي دعوة ربه إلى (جنة دوحه المولج)، وهو إذ يمضي في قتال خصومه يؤمن أنه سيموت (على ملة الله)، وما من شرف يفوق هذا الشرف في نظر المؤمن. ولم يكن الرثاء عند كعب وعند غيره من شعراء الدعوة -وفقاً لهذا الفهم- إلا صورة من صور الدعاية للدين وبت الأفكار الإسلامية، لأن شعراء المسلمين كانوا يمزجون رثاءهم لقتلهم بثواب الآخرة، والتنعّم بجنان الخلد، والاستشهاد في سبيل الدين هو الغاية السامية التي يسعى إليها المسلم.²

¹ ديوان كعب بن مالك: ص: 157، ق12.

ذو الأضوج: الوادي فيه منعطفات، القسطل المرهج: الغبار الثائر، الدوحة: العظيمة المتسعة، المولج: المدخل، الملة: السنة والطريق، يرحج: يأثم، ذو هبة: سيف ذو مضاء في الضريبة، الصارم: السيف القاطع، سلجج: مرهف حاد.

² شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ص: 119.

وقد رسم كعب هذه الصورة الجماعية بخيوط إسلامية خالصة، وهو ما يؤكد القول: إن البعد الديني كان واضحاً متميزاً في سياق الرثاء عامة عند شعراء الدعوة، وكان أوضح وأكثر تميزاً في رثائهم الجماعي لشهداء المسلمين خاصة، بفضل التصور الجديد لمفهوم الجماعة في ظل الإسلام.

الخاتمة:

اتضح مما تقدّم أن شعراء الدعوة الإسلامية التزموا القيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام، وبدا التزامهم هذا في شعرهم، فكان للإسلام الأثر الأوضح في توجيه شعرهم في اتجاهاته المختلفة، واقتصر البحث على دراسة البعد الديني في سياقات ثلاثة هي: سياق المدح والفخر، وسياق الهجاء، وسياق الرثاء.

وتبيّن أن البعد الديني كان واضحاً في توجيه الشعر في سياق المدح والفخر توجيهاً جديداً، وبدا اختلاف مدحهم عن مدح غيرهم ممن لم يتغلغل نور الإسلام في قلبه في جهة (الغاية من المدح)، فلم يعد المدح عند هؤلاء تكسباً أو رهبة أو خوفاً، ولكنه أصبح تمجيداً للنبي الكريم ولرفاق الدعوة، ولم يلحظ تغيير كبير في قيم المدح، فظلت القيم المألوفة حاضرة، خاصة أن الشعراء لم يجدوا فيها ما ينافي مبادئ الإسلام وقيمه، وامتزج المدح بالفخر في مواضع كثيرة حتى لم يعد ممكناً - في معظم الأحيان - تمييز المدح من الفخر في شعر شعراء الدعوة، واتجه الفخر اتجاهًا جماعياً، مع التنبّه على ما طرأ على مفهوم الجماعة من تغيير.

وكان سياق الهجاء مختلفاً عن سياق المدح والفخر، لاختلاف الهجاء عن المدح والفخر، من حيث طبيعة الهجاء وأساليبه، واختلاف الغاية التي قصد إليها شعراء الدعوة من وراء هجائهم، ثم لاختلاف تمثّل الشعراء القيم الدينية الجديدة، وظهر أثر ذلك في أشعارهم، فلم يظهر البعد الديني في سياق الهجاء واضحاً، من جهة، وظلّ هذا الغرض في معظم الأحيان محكوماً بالقيم التقليدية المألوفة، وبطرق الهجاء وأساليبه التي تمرّس بها الشعراء في جاهليتهم، والتي تمرّس بها أيضاً الطرف الآخر/ المهجو، وظلّ يستخدمها في هجاء شعراء الدعوة أو في ردّ هجائهم، واختلف شعراء الدعوة أنفسهم في مدى ظهور أثر الإسلام في هجائهم، من جهة أخرى، وهذا أمر لاحظته النقاد قديماً كما أشرت في أثناء البحث، وتبيّن أن البعد الديني ظهر في سياق الهجاء أحياناً عندما هجا بعض شعراء الدعوة المنافقين وأهل الكتاب، لعلم الشعراء بأن الهجاء بالمعاني الدينية

سيحقق ما يرتجى منه مع أولئك، وتوارى ذلك البعد الديني في أثناء هجاء الكفار، لانعدام الجدوى منه، وتيقن الشعراء المسلمين بعدم تأثير الهجاء بمعاني الكفر والضلال في من لا يؤمن أصلاً، وكانت الغاية من اعتماده، أو من تغييره: التأثير في المهجو وفي المتلقين عامة، وتحقيق غاية إصابة الطرف المهجو وتبيين تفوق الشاعر.

وأما سياق الرثاء فكان البعد الديني فيه واضحاً بيّناً، وإن لم يكن خالصاً، فقد ظلت منظومة القيم الموروثة مصدرًا نهل منه الشعراء في التأبين، إلا أن البعد الديني تجلّى على نحو خاص في ابتعاد شعراء الدعوة عن الندب من جهة، وفي العزاء والتأسي من جهة أخرى، أي إن أثر الإسلام بدا في شعر شعراء الدعوة في أثناء الحديث عن مفهوم الموت (الذي أصبح شهادة)، وعن المصير بعد الموت (الجنة)، وكان البعد الديني أوضح في اتجاه الرثاء الجماعي (رثاء شهداء المسلمين) مما كان عليه في رثاء الأفراد، "فالرثاء في فترة الدعوة الأولى توجّهوا إلى من سقط في سبيل الله مستشهداً بوجدانهم الجماعي الذي كونه الإسلام فيهم، بعد أن كان وجداناً فردياً، فبكوا الشهداء وأثّوا عليهم، وتمنّوا لو سبقوهم، ودعوا لهم بأن يدخلهم الله جناته، لأنهم فازوا برضوانه، فالمعاني الرثائية معانٍ جماعية، والحزن على الشهيد حزن جماعي، والتأبين له إنما هو تأبين للشهداء كافة، والتصبر والعزاء خير لهم."¹

إن شعر شعراء الدعوة كان شعراً إسلامياً حقاً، لكنه "لم يكن ليعبر عن القيم والمبادئ الدينية على الوجه المرجوّ من شعراء الرسول، وذلك لأن الشعراء لم يكن بوسعهم أن يتخلّصوا بسهولة من الطريقة التي ألفوها في نظم الشعر وصياغة المعاني التقليدية، هذا أولاً، وثانياً لأنهم أنفسهم لم يكونوا ليستوعبوا ويدركوا إدراكاً عميقاً واضحاً المبادئ والقيم الدينية،... فكان لذلك أثر الدين في شعرهم وفقاً على... النقل من تعاليم الإسلام، لا الإبداع وابتكار المعاني المستوحاة من هدي الإسلام وتعاليمه."²

¹ قصيدة الرثاء؛ جنور وأطوار: حسين جمعة، ص: 278-279.

² شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ص: 349-350.

المصادر والمراجع:

1. الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني (852هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.
2. الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، ط2، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1369هـ/1950م.
3. أنساب الأشراف: البلاذري (279هـ)، تحقيق: محمود فردوس العظم، دار اليقظة، دمشق.
4. بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي؛ قصيدة المدح نموذجاً؛ وهب رومية، دار سعد الدين، دمشق، 1418هـ/1997م.
5. تاريخ الأدب العربي: بلاشير، ترجمة: إبراهيم الكيلاني، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1973م.
6. الثابت والمتحول: أدونيس، دار الساقى، ط7، بيروت، 1994م.
7. حسان بن ثابت؛ حياته وشعره: إحسان النص، دار الفكر، دمشق، 1965م.
8. ديوان حسان بن ثابت: حققه وعلق عليه: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 1974م.
9. ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري الخرجي: حسن محمد باجودة، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1972م.
10. ديوان كعب بن مالك الأنصاري: دراسة وتحقيق: سامي العاني، ط2، عالم الكتب، بيروت، 1417هـ/1997م.
11. ديوان النابغة الذبياني: صنعة ابن السكيت (244هـ)، تحقيق: شكري فيصل، دار الفكر، بيروت، 1968م.
12. الرثاء في الجاهلية والإسلام: حسين جمعة، ط1، دار معد، دمشق، 1991م.
13. السيرة النبوية: ابن كثير (774هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، 1935هـ/1976م.
14. السيرة النبوية: ابن هشام، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهرسها: مصطفى السقا؛ وإبراهيم الأبياري؛ وعبد الحفيظ شلبي، دار القلم، بيروت.
15. السير والمغازي: محمد بن إسحق المطلبى (151هـ)، تحقيق: سهيل زكار، ط1، دار الفكر، 1398هـ/1978م.
16. شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: صنعه وضبطه وشرحه: عبد الرحمن البرقوقي، المكتبة التجارية الكبرى، المطبعة الرحمانية، مصر، 1347هـ/1929م.

17. شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه: يحيى الجبوري، ط3، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1408هـ/1988م.
 18. شعرنا القديم والنقد الجديد: وهب رومية، عالم المعرفة (207)، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، شوال 1416هـ/1996م.
 19. ضرورة الفن: إرنست فيشر، ترجمة: أسعد حليم، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986م.
 20. طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام الجمحي (231هـ)، قرأه وشرحه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، الناشر دار المدني، جدة، 1974م.
 21. العمدة في محاسن الشعر وآدابه نقده: ابن رشيق القيرواني (463هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، بيروت، 1401هـ/1981م.
 22. قصيدة الرثاء؛ جذور وأطوار: حسين جمعة، دار النمير، دار معد، دمشق، 1998م.
 23. قيم جديدة للأدب العربي: عائشة عبد الرحمن، ط1، دار المعرفة، القاهرة، 1994م.
 24. المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام: مقبول علي بشير النعمة، ط1، دار صادر، بيروت، 1997م.
 25. معجم الشعراء: المرزباني (384هـ)، صححه وعلق عليه: ف. كرنكو، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ/1991م.
 26. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، 1980م.
 27. موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: عبد الوهاب المسيري، ط1، دار الشروق، بيروت، 1999م.
 28. الموشح؛ مأخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر: المرزباني أبو عبيد الله محمد بن عمران (384هـ)، تحقيق: علي البجاوي، دار نهضة مصر، 1965م.
 29. الهجاء والهجاؤون في الجاهلية: محمد محمد حسين، دار النهضة العربية، ط3، بيروت، 1389هـ/1970م.
- الأبحاث والمقالات:**
1. صورة الخليفة ومفهوم (النموذج)؛ شعر شعراء الطبقة الإسلامية الأولى من طبقات ابن سلام نموذجاً: فاطمة تجور، مجلة جامعة دمشق، المجلد (24)، العددان (3-4)، 2008م.